## مكية الجزء الثلاثون سورة العلق آياتها ١٩

سُورَةُ الْعَلَقِ ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، أول ما نزل من القرآن لاسيما الخمس الآيات الأول منها، وكان في ذلك ما أخرجه الشيخان، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾ [العلق:١-٣]»(١).

وفي هذه الآية دليل على أهمية العلم قبل كل شيء؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن ينزل الدعوة إلى التوحيد والأحكام والمعاملات أنزل العلم، وأمر به دلالة على فضله وعلو منزلته.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أَيْ: تعلم ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: حال كونك مستعين بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أعان العبد يسر له من العلوم والفهوم ما يكون مميزًا به على غيره. ثم إننا بحاجة إلى الاستعانة بالله في جميع شأننا، وكما قيل:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ❁❁❁ فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

وذكر اسم الرب دون غيره؛ لأنه اسم بمعناه الخاص يدل على حفظ وعناية وغير ذلك من معاني الربوبية، لاسيما والإضافة هنا إضافة التشريف.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أَيْ: خلقك وخلق غيرك، والخلق هو الإيجاد من العدم، قال الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ ❁❁❁ الْقَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لَا يَفْـرِي

(١) متفق عليه، البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

وإثبات الخلق يلزم أن يكون عالما قادرا، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤]، وكان مبدأ خلق الإنسان من طين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص:٧١]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ هذه الخلقة الأخرى، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦].

وأوله نطفة: وهو ما يخرج من مني الرجل والمرأة، ثم من علقة: وهو ما يكون كهيئة العلقة، وهي حيوان صغير مركبة من دم، ثم من مضغة: قطعه لحم، ثم يتدرج، فجعله عظامًا ثم يكسو العظام لحمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ اقرأ وأبشر من الله بالخير هو الكريم الأكرم، ومن معاني الكريم: الذي يعطي الكثير مجازاة على القليل، وربما أعطى الكثير دون جزاء، ومن معاني الكريم: أنه شديد الانتقام ممن أعرض عنه، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨].

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أَيْ: علم الخط والكتابة وذكر القلم دون غيره معًا أن العلم يكون بالقول والحفظ؛ إلا أن القلم يحفظ به العلم إلى أعصر متأخرة؛ ولذلك انتصر الإسلام بالسنان والبنان، وقد تكلم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على أنواع الأقلام في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»، فقال: **والأقلام متفاوتة في الرتب:**

**فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق**، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يا رب وما أكتب قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، واختلف العلماء هل القلم أو المخلوقات أو العرش على قولين: ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام عرشه على الماء**» فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» إلى آخره إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند

أول خلقه قال له أكتب كما في لفظ «**أول ما خلق الله القلم قال له أكتب**» بنصب أول والقلم، فإن كانا جملتين وهو مروى برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق الله القلم قال له اكتب**»، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به.

**فصل: القلم الثاني:** قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

**فصل: والقلم الثالث:** قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

**فصل: القلم الرابع:** قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد إليها صحتها المفقودة وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

**فصل: القلم الخامس:** التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام والمشاركون للملوك في تدبير الدول فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

**فصل: القلم السادس:** قلم الحساب: وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها وهو قلم الأرزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذ القلم وظلم فسد أمر المملكة.

**فصل: القلم السابع:** قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص فهذا له النفوذ واللزوم

وذاك له العموم والشمول وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

**فصل: القلم الثامن:** قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة وتحول بين الفاجر وإنكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

**فصل: القلم التاسع:** قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن وحس مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام وأعمها جولانا وأوسعها تصرفاً وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

**فصل: القلم العاشر:** قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك.

**فصل: القلم الحادي عشر:** قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

**فصل: القلم الثاني عشر:** القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به وأن الله سبحانه أقسم به في

كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا بواسطة القلم(١). اهـ.

فالله عَزَّوَجَلَّ علم بالقلم، فحفظ بالقلم القرآن، والسنة، وما زال الناس يستخدمون هذا القلم في طاعه الله عَزَّوَجَلَّ، ومنهم من يعرض وهم الأكثر.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أَيْ: من أنواع الهدى والبيان، فعلمه أمور الدين الشرعية، فأنزلها وحيًا إلى محمد ﷺ، وعلمه كثيرًا مما يصلح حاله، من مأكله ومشربه وملبسه ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٥٠]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة:٣١]، وعلم الدين هو أشرف أنواع العلم، وأما علم المشارب، والمآكل، والملابس، والمناكح، يحسنه كل أحد، لكن علم الكتاب والسنة يختص الله عَزَّوَجَلَّ به من شاء من عباده قال النبي ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٢)، وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٣). وقد امتن الله على نبيه ﷺ بهذا المعنى في آية أخرى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى:٧].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: حقًا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أَيْ: جنس الإنسان يقع منه الطغيان، وهو مجاوزة الحد الذي شرعه الله وأمر، والطغيان مأخوذ من المجاوزة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١]، ويقع منه الطغيان ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أَيْ: إذا رأى نفسه غنيًا فإذا منَّ الله عليه بشيء من المال، أو الولد، أو الجاه، ظن أنه في مرتبة علية، وفي درجة سنية، فيقع منه الإعراض إلا من رحم الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٠٧).

(٢) متفق عليه، البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٧٣)، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٧-٣٨].

فقال تعالى مهددًا له: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أَيْ: في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة:١١] فكيف يستغني ويعرض عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن طاعته وهو راجع ومحشور إلى الله فيجازيه على عمله، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]. وهذا فيه من الوعيد ما الله به عليم، فإن الإنسان إذا علم أنه راجع ومحاسب على عمله كان ذلك من دواعي توبته واستغفاره، والله المستعان.

ثم انتقل إلى معنى آخر رادًا على أبي جهل - لعنه الله - حين زعم أنه يمنع محمدًا ﷺ من الصلاة في جانب البيت، بل لقد عزم على أن يطأ على عنقه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ -: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [العلق:٧-١٣] - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق:١٤-١٩][1].

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ منكرًا على هذا الصنف: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ ألا تعجب على حاله كيف ينهى عن الصلاة وعن طاعة الله مع أن الزنا، والقتل، والربا، والشرك موجود، ولم ينكر شيئًا من ذلك ولما رأى المصلي يصلي قام ينكر عليه. وهذا المعنى حاصل فإن كثيرًا من الناس يرى السُّرَّاق، والزناة والزواني، وأكلة الربا، وفاعلي الحرام والإجرام، ولا ينكر عليهم، وإذا رأى المستقيم الذي عفَّ لحيته، وقصر ثوبه، ولزم مسجده، وإذا به

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).

يسخر منه حتى أن بعض السلف قيل له: لماذا لا تنهى فلان عن الصلاة بعد العصر، قال: ما أريد أن أكون من الذي ينهى عبدًا إذا صلى، مع أن النصيحة مطلوبة؛ لأن الصلاة بعد العصر منهي عنها إلا لقضاء أو استخارة، أو لذات سبب.

﴿ عَبْدًا ﴾ أَيْ: لله عَزَّوَجَلَّ ﴿ إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ أقبل عليه بالطاعة والعبادة ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ: هذا المصلي كان على الهدى، كان على العلم والعمل؛ لأن الهدى يطلق على معنيين العلم والعمل، فكيف ينكر على من هذا حاله، بل هذا يثنى عليه، ويدعى له، ويستفاد منه.

﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ أَيْ: هذا المصلي كان على الهدى وكان يأمر بالتقوى بالإخلاص والتوحيد ويدخل فيها الأمر بفعل المأمور وترك المحظور، ومراقبه الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا الناهي ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أَيْ: أخبرني إذا كان أبو جهل الذي ينهي المصلي عن صلاته: ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ كذب بخبر الله عَزَّوَجَلَّ وخبر رسوله ﷺ، وتولى عن فعل ما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ، فقال مهددًا له: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ هذا الذي ينهى المصلي عن الصلاة، والمستقيم عن الاستقامة ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يرى ما يفعل من نهيه عن طاعة الله، ومن أمره بمعصية الله، والله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، والله يراك على كل حال، كما قال: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦].

والإنسان إذا علم أنه مراقب قل شره وخشي من مراقبته، فهنا يقول: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ يراه في أمره ونهيه، ويراه في فعله، وتركه، فإذن لماذا يتجرأ هذه الجرأة حتى وصل به الحال إلى أن ينكر على المصلين صلاتهم، وعلى المزكين زكاتهم، وعلى الصائمين صيامهم، وعلى المستقيمين استقامتهم.

﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ: حقًا ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ لئن لم يترك ما هو فيه من الباطل وينزجر عما هو فيه من الأذى لمحمد ﷺ ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذنه بالناصية وهي مقدمة الرأس، وهذا سبب لهلاكه ونزع حياته، ثم قال: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ كاذب في قوله، وخاطئ في فعله. ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ لأن أبا جهل هدد بدعوة النادي والأتباع الذين كانوا يجلسون في المجلس. والنادي هو المجلس العام الذي يجتمع فيه الناس.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أَيْ: لنصرته وإعانته ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أَيْ: خزنة النار؛ لتأديبهم ومنعهم

من باطلهم، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء لكنه يربط الأسباب بمسبباتها، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ولكن أنت يا أبا جهل ومن إليك من الكافرين حين تتكثرون بأتباعكم وأنصاركم فاعلموا أن الله مسلط عليكم الزبانية، إما في الدنيا وإما في الآخرة. وهذا الوعيد لو أنه وقع من أبي جهل لسلط الله عليه الزبانية ولكنه رجع بعد أن رأى هولًا وخندقًا وأجنحة، فقال النبي ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**».

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه وهو أمر لمن سلك هذا السبيل: ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: حقًا، ليس الأمر كما هو عليه أبو جهل ومن معه ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في ترك الصلاة ولا تكن طائعًا للمخاصمين المعارضين، في جميع الدين فإن طاعتهم سبب للضلال، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم:١٠]، ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ ويدخل فيه جميع الصلاة، وإنما ذكر السجود؛ لأنه أشهر أفعال الصلاة ﴿وَٱقْتَرِب﴾ من ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنال منه الجزاء الأوفى، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١]، وَ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]»(٢).

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٥٧٨).